الطب الإسلامي أساس العلوم الطبية المعاصرة
دراسة تأصيلية

أ. د. أحمد فؤاد باشا*

مقدمة :

حققت الحضارة الإسلامية انتشارًا ودواما متلازمين لم تحققهما أية حضارة أخرى عبر التاريخ ، وكانت مصدر الإشعاع الوحيد الذى غمر بنوره كل أنحاء الدنيا فى العصور الوسطى ، ولا تزال آثارها ومؤلفات علمائها خير شاهد على دورهم الريادى فى مسيرة التقدم العلمي والتقنى . وفى مجال الطب والصيدلة كان لهؤلاء العلماء القدح المعلى ، سواء فى فن الترجمة والتأليف ، أو فى اتباع المنهج العلمى السليم ، أو فى السبق إلى العديد من الاكتشافات التى قامت عليها العلوم الطبية والصيدلية الحديثة ، ولا يزال العالم ينعم بثمارها وفوائدها حتى اليوم .

وهذه الدراسة التأصيلية تحاول أن تعود بالعلوم الطبية والصيدلية المعاصرة إلى جذورها فى المجتمع الإسلامى الذى كان شاهدًا على ميلادها ، وأن تتعرف على طبيعة الظروف التى سمحت للمفاهيم والأفكار الوليدة أن تنمو وتزدهر ، وتصبح بعد ذلك فروعا فى شجرة المعرفة ، وروافد لاغنى عنها لتغذية الحضارة الإنسانية فى الحاضر والمستقبل .

وسوف نسعى من خلال ذلك الى أن نلقى الضوء على بعض ما يتضمنه التراث الطبى لعلماء الحضارة الإسلامية من نظريات وأفكار ومفاهيم ذات قيمة معرفية ومنهجية ، تشكل الأساس لكثير من المباحث العلمية الدقيقة التى تعامل اليوم كعلوم تخصصية فرعية شبه مستقلة ؛ نظرا لاتساع دائرة البحث فى موضوعاتها ، مثل : علوم التشريح والجراحة ، والطب السريرى ، وطب الفم والأسنان ، وطب النساء والتوليد ، وطب الأطفال ، والطب النفسانى ، والطب الوقائى ، والطب البيئى ، والطب الاجتماعى ، والصحة العامة ، وطب الأعشاب والعقاقير ، والأقربازين ، والطب البديل ، وغيرها .

(أ) علم التشريح :

حظى علم التشريح ، والتشريح المقارن باهتمام خاص لدى علماء الحضارة الإسلامية ؛ حيث جعلوا دراسته أساسًا لكل فروع الطب ، واعتبروا ممارسته ضرورية لفهم وظائف الأعضاء ، وعدّوا إتقانه ضمانًا لسلامة التشخيص والعلاج .

(*) أستاذ الفيزياء بكلية العلوم ـ جامعة القاهرة ، ونائب رئيس جامعة القاهرة سابقًا .

ولم تكن مؤلفات اليونان فى التشريح هى المصدر الوحيد لمعلومات علماء المسلمين - كما يدعى بعض المؤرخين غير المنصفين - ولكن الإبداع الحقيقى فى هذا العلم بدأ فى عصر النهضة الإسلامية ، حيث كانت النتائج تُستخلص بناءً على المشاهدات والتجارب ، وليس على ما قاله الأقدمون من آراء نظرية وفلسفية . وكان الحكم فى أى قضية علمية يستند إلى العقل والمنطق والخبرة والتجربة ، بصرف النظر : هل وافق هذا الحكم رأى السابقين أو خالفهم .

ويعتبر أبو بكر الرازى من أوائل الأطباء المسلمين الذين ألفوا فى علم التشريح عن دراية واقتدار ، فقد ذكر أن رجلا سقط عن دابته ، فذهب حس الخنصر والبنصر ونصف الوسطى من يديه ، ولما علم أنه سقط على آخر فقار فى الرقبة ، قام بمداواة ما بين كتفيه ؛ لأنه - كما يقول - كان يعلم من التشريح أن العصب الذى يخرج من أول خرزة بين الكتفين يصير الى الأصبعين : الخنصر والبنصر ، ويتفرق فى الجلد المحيط بهما ، وفى النصف من جلد الوسطى .

وعندما علم عبداللطيف البغدادى - أحد أصفياء صلاح الدين الأيوبى - بوجود تل كبير من الهياكل العظمية البشرية فى مكان ما بالقاهرة ، سافر الى هناك وفحص الآلاف من هذه الهياكل فحصًا دقيقًا ، وشاهد - كما يقول - من شكل العظام ومفاصلها وكيفية اتصالها ، وتناسبها ، وأوضاعها ، ما أفاده علما لم يكن ليجده بين دفات الكتب ، وكان من بين ما توصل إليه أن الفكّ الأسفل عبارة عن عظمة واحدة بدون مفصل ، وليس مؤلفا من عظمتين يجمع بينهما مفصل أو تدريز كما قال «جالينوس» .

وقد أوصى ابن النفيس بأهمية دراسة التشريح المقارن ؛ لما رأى من تباين فى تركيب أجسام الحيوانات المختلفة ، وتوصل من ذلك - قبل «هارفى» الإنجليزى بعدة قرون - إلى كشف الدورة الدموية الصغرى ، بعد أن عرف تشريح الشرايين والأوردة فى الرئة ، وضمّن هذا الاكتشاف الرائد كتابه الشهير المعروف باسم «شرح تشريح القانون» . كذلك توصل ابن النفيس من تشريح عيون الحيوانات إلى أن منفعة العين - كآلة للإبصار - لا تتم إلا بعصب يأتى من المخ ويميز المرئيات ، وهو العصب النورى ، أو العصب البصرى الذى يعرفه العلم الحديث ، ويقوم بنقل صور المرئيات التى تنطبع على الغشاء العصبى لشبكية العين إلى مركز الإبصار بالمخ ، حيث يتم تفسيرها وتحليلها والرد عليها بأجوبة وأفعال فورية ، فليست العين فى حقيقة الأمر سوى جهاز يرى به المخ كل شىء .

وكتب ابن سينا، وابن الهيثم، وعلى بن عيسى الكحال . . . وغيرهم فى علم التشريح الوصفى - عن تشريح العين، وطبقاتها، وأعصابها، ومصدر غذائها، وعلامات أمراضها، وعيوب إبصارها، وعرفوا أن حركة المقلة تحدث نتيجة لانقباض عضلات العين، وأن حركة الحدقة تتم بانقباض القزحية وانبساطها(١) .

وتجدر الإشارة هنا الى خطأ زَعْم المستشرقين عدم مزاولة التشريح فى العصر الإسلامي، فكثيرًا ما نجد فى مؤلفات المسلمين عبارات من قبيل : «إن التشريح يكذب ما ذكر»، أو «إن التشريح يبرهن كذا وكذا»، كما أن ما أثبتوه من أوصاف تشريحية لأجزاء الجسم المختلفة لايصدر إلا من خبراء، رأوا ولاحظوا وقارنوا وجربوا (٢) .

وبينما كان علم التشريح يشهد أزهى مراحل تطوره فى عصر النهضة الإسلامية، ويدفع فى ركابه كل فروع الطب الأخرى؛ لتحرز الكثير من الاكتشافات العلمية الأصيلة - كانت أوروبا فى العصور الوسطى تعتبر مهنة الطب بصفة عامة، وممارسة التشريح والجراحة بصفة خاصة، من الأعمال المشينة التى تنال من جلال الروح والجسم، وتزيد الآلام أكثر مما تعمل على تخفيف وطأتها . ولم يؤخذ بالتشريح كعلم أساسى فى كليات الطب فى أوروبا إلا فى القرن السادس عشر الميلادى، بعد أن تعلم الغربيون أصوله، واقتبسوا فنونه من المؤلفات العربية لعلماء الحضارة الإسلامية .

(ب) علم الجراحة :

تقدم علم الجراحة وعلا شأنه بين فروع الطب على أيدى العديد من علماء الحضارة الإسلامية الذين برعوا فى إجراء العمليات الجراحية بآلات وأدوات مناسبة، واستخدموا الأوتار الجلدية، وأمعاء القطط والحيوانات الأخرى فى تخييط الجروح بعد العمليات الجراحية، وأظهروا دراية فائقة بجراحة الأجزاء الدقيقة من الجسم : كالأعصاب، والعظام، والعيون، والأذن، والأسنان، والفتق، وشق القصبة الهوائية، وتفتيت الحصاة داخل المثانة، واستئصال الأورام الليفية فى الأغشية المخاطية، واستئصال الأورام الخبيثة، وغيرها .

(١) الموجز فى تاريخ الطب والصيدلة عند العرب، بإشراف د .محمد كامل حسين . المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، بدون تاريخ للنشر .

(٢) د . ماهر عبدالقادر محمد على : مقدمة فى تاريخ الطب العربى . دار العلوم العربية، بيروت لبنان، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م .

وقد وصف أبوبكر الرازى فى كتابه « الحاوى» عملية جراحية فى الأعضاء الآلية بقوله : «يجب أن تكون عالمًا بالعصب الذى يأتى إلى كل واحد من الأعضاء ، وما منها عصب الحس وما منها عصب الحركة ، وفعل العصب يبطله إما بتره البتة فى العرض ، أو رضه ، أو سدّه ، أو لورم يحدث فيه ، أو لبرد شديد يصيبه ، إلا أن الورم والسدّة والبرد قد يمكن أن يرجع فعله إذا ارتفعت علله ، وإن حدث فى نصف العصب ـ عرضًا ـ قطعٌ استرخت الأعضاء التى فى تلك الناحية ، وإن شُق العصب بالطول لم ينل الأعضاء ضرر البتة ، فاقصد أبدًا عند بطلان حس عضو أو حركة إلى أصل العصب الجائى إليها»(١) .

وللرازى وصف جيد لعملية إزالة جزء من العظام المريضة أو استئصالها كلها ، واستخدامه الماء البارد فى علاج الحروق ، وهي طريقة حديثة جدًا ، وتستعمل فى الوقت الحاضر كإجراء إسعاف أولى لحروق الأطراف ؛ حيث يوضع الذراع أو الساق فى ماء بارد لمدة دقيقتين ، وقد ثبت أن هذا يؤدى الى تخفيف الألم وتقليل فقدان البلازما(٢) .

وللرازى كتاب آخر اسمه «المنصورى» ، أفرد فيه المقالة السابعة للجراحة ، وجعلها من تسعة عشر فصلا ، وهى تعنى بجمل من صناعة الجبائر والجراحات ، والقروح وعلاجاتها .

أما أبو القاسم الزهراوى – الملقب بفخر الجراحة العربية – فيعتبر كتابه القيم «التصريف لمن عجز عن التأليف» موسوعة طبية تقع فى ثلاثين جزءا ، ومزودة بوصف الآلات المستخدمة فى إجراء العمليات الجراحية وكيفية استخدامها ، مع بيان تفصيلات كل منها بالرسوم الإيضاحية . وقد اكتسب هذا الكتاب أهمية كبرى ؛ على اعتبار أنه الأول من نوعه فى الموضوع ، وحظى باهتمام كبير لدى أطباء أوروبا ، وبقى مرجعًا تدريسيًا معتمدا فى الجامعات الأوربية لعدة قرون . وأول لغة ترجم إليها هذا الكتاب ـ عقب ظهوره ـ كانت اللغة العبرية ، ثم ترجم الى اللاتينية «بالبندقية» عام ١٤٩٥م ، و«فينسيا» عام ١٤٩٧م ، و»استراسبورج» عام ١٥٣٢م ، و«بال» عام ١٥٤١م . ونشر الجزء الخاص بالجراحة من هذا الكتاب مرتين : إحداهما بالنص العربى مع ترجمته اللاتينية فى مجلدين بلندن عام ١٧٧٨م ، والثانية بالنص العربى فقط فى «لكنو» بالهند عام ١٩٠٨م(٣) .

---

(١) د . أحمد فؤاد باشا : التراث العلمى للحضارة الإسلامية ومكانته فى تاريخ العلم والحضارة . القاهرة ، ١٩٨٤م .

(٢) الموجز فى تاريخ الطب والصيدلة عند العرب ،مرجع سابق .

(٣) د . أحمد مختار منصور : دراسة وتعليق على كتاب «التصريف لمن عجز عن التأليف» الجزء الثلاثون – للزهراوى ، مجلة معهد المخطوطات العربية ، المجلد٢٦ ، الجزء الثانى . الكويت ، ١٤٠٣هـ – ١٩٨٢م .

ولقد عرف علماء الحضارة الإسلامية نظام الفريق فى إجراء العمليات الجراحية الكبيرة ، حيث يشرف أحد الأطباء على التخدير ، ويراقب آخر حالة النبض ، بينما يقوم الثالث بإجراء العملية ، يعاونه مساعد يمسك له موضع الجرح بآلة ذات شقين .

ويأتى وصف على بن عباس لإحدى عمليات استئصال الورم - دليلا على المستوى الرفيع الذى وصل إليه علم الجراحة فى عصر النهضة الإسلامية ، فيقول معلمًا تلاميذه : «عليك أن تقص بهدوء وترو ، فتفصل الورم عمّا حواليه ، واحرص على ألا تقطع أى شريان ؛ حتى لا يحدث أى نزيف مكان العملية ، فيضايقك فى عملك ويعوقك عن الرؤية ، فإذا ما انتزعت الورم ، ادخل إصبعك فى التجويف ، وتحسسه لعل هناك بقايا منه . . . وإذا ما انتزعت الورم كله وتأكد لك زوال بقاياه المترسبة ، اجمع الجلد واقطع منه الزائد واستعمل فى التخييط نسيلا من الأمعاء . . . وأما السرطان فهو حقل لم يفلح فيه الطب والتطبيب إلا نادرًا ، لذلك عليك أن تقلع الورم من جذوره حتى لا تبقى منه بقايا أو رواسب ، ثم تضع فى التجويف خرقة (مطهرة) لئلا يحصل أى تعفّن أو التهاب» (١) .

وإدراكا من علماء الحضارة العربية الإسلامية لأهمية الجراحة ، فإنهم أدخلوا نظام الامتحانات وإعطاء الإجازات ، وفيما يلي نص شهادة حصل عليها طبيب عربي مختص بالجراحة الصغيرة : «بسم الله الرحمن الرحيم . بإذن البارئ العظيم ، نسمح له بممارسة فن الجراحة ؛ لما يعلمه حق العلم ، ويتقنه حق الإتقان ؛ حتى يبقى ناجحًا وموفقًا فى عمله ، وبناء على ذلك فإن بإمكانه معالجة الجروحات حتى تشفى ، واستئصال البواسير ، وقلع الأسنان ، وفتح الشرايين ، وتخييط الجروح ، وتطهير الأطفال . . . وعليه - أيضًا - أن يتشاور دومًا مع رؤسائه ، ويأخذ النصح من معلميه الموثوق بهم وبخبرتهم» (٢) .

والجدير بالذكر أن الجراحة الطبية عند العرب كانت فى بادىء الأمر تعتبر من جملة صناعة الحجامين الذين يقومون بالكى والفصد والبتر ، وكانت تسمى عندهم «صناعة اليد» ، ولكنها تقدمت على أيدى الرازى ، وابن سينا ، والزهراوى ، وغيرهم ، حتى أصبحت تخصصًا طبيا له أهله المؤهلون علميًا لممارسته وتعليمه .

(جـ) علم الطب السريرى :

من المعروف فى مجال العلوم الطبية أن الطب السريرى (الإكلينيكى) يعتبر من

---

(١) د . أحمد فؤاد باشا : التراث العلمى للحضارة الإسلامية ، مرجع سابق .

(٢) المرجع السابق .

المعارف الضرورية التى لا يستغنى عنها أى طبيب فى أمور التشخيص والعلاج . وقد كان أطباء الحضارة الإسلامية سباقين إلى تأصيل علم الطب السريرى وتقنينه ؛ حيث أدركوا أهمية التعرف على تاريخ المرض والمرضى ، وتسجيل الملاحظات السريرية (الإكلينيكية) ، ونتائج الفحوص والمعاينة ، ومراقبة تغيراتها .

وقد عُرف عن أبى بكر الرازى أنه كان بارعًا ودقيقًا فى دراسة الحالات المرضية دراسة تحليلية تتضمن تاريخ الإصابة ، وتطور حالة المريض ، كما كان يصف مزاج المريض ومهنته وعمره وجنسه ، ويستفسر منه عن بيئته ، وحياته ، وأحوال معيشته ، والأمراض التى أصابته سابقًا ، والأمراض المتوارثة فى أهل بيته وعائلته ، وينصت إليه وهو يعرض شكواه ، ويعطى أهمية كبرى لفحص القلب والنبض والتنفس والبراز عند مراقبة تطور المرض ، ويسجل ذلك كله ؛ لكى يقف على ما يطرأ من تحسن أو تدهور فى الحالة الصحية للمريض .

ويصف الرازى بنفسه منهجه فى علم الطب السريرى بقوله : «كان يأتى عبدالله بن سوادة حميات مخلطة ؛ تنوب مرة فى ستة أيام ، ومرة غبا ، ومرة ربعا ، ومرة كل يوم ، ويتقدمها نافض يسير ، وكان يبول مرات عديدة ، وحكمت أنه لا يخلو أن تكون هذه الحميات تريد أن تنقلب ربعًا ، وإما أن يكون به خراج فى كلاه . فلم يلبث إلا مُدة حتى بال مدّة . أعلمته أنه لا تعاوده هذه الحميات ، وكان كذلك . وإن ما صرفنى فى أول الأمر عن أن أبت القول بأن به خُراج فى كلاه ، أنه كان يحم قبل ذلك حمى غب وحميات أخر . . وقد كان كثرة البول يقوى ظنى بالخراج فى الكلى ، إلا أنى كنت لا أعلم أن أباه ـ أيضًا ـ ضعيف المثانة ، ويعتريه هذا الداء ، وهو ـ أيضًا ـ قد كان يعتريه فى صحته ، فينبغى ألا نغفل بعد ذلك غاية التقصى إن شاء الله»[(١)] .

ويدلنا هذا النص التراثى على سبق الرازى إلى إدراك أصول الطب السريرى ، فهو يلوم نفسه على عدم معرفة المرض لأول وهلة ، وكان يستطيع ـ لو تقصى الحالة ـ أن يصل إلى البت فيها . . ثم يلوم نفسه على أنه لم يسأل المريض عن حالته قبل ذلك ، وعن حالة أبيه .

ويبدأ فهم أساسيات الطب السريرى عند المسلمين بما يسمونه «الاستدلالات» ، فيقرر الرازى فى كتابه «المرشد» أو «الفصول» أن استدراك علل الأعضاء الباطنة يحتاج«إلى العلم بجواهرها أولا ؛ بأن تكون شوهدت بالتشريح ، لكن إذا برز منها شىء عرف ، مثال

---

(١) د . أحمد فؤاد باشا : والتراث العلمى للحضارة الإسلامية ، مرجع سابق .

ذلك : أنه متى خرج بالنفث شىء من جوهر الرئة ، لم يعرف ذلك إلا من قد شاهد ذلك الجوهر فى الرئة مرات» . ويحتاج «إلى العلم بمواضعها ؛ فإن من علم موضع الكبد لم يظن إذا رأى وجعا فى الجانب الأيسر من البطن أنه فى الكبد» . ويحتاج «إلى العلم بأفعالها ؛ فإن من علم أن الحس والحركة تكون بالعصب والنخاع والدماغ ، لم يقصد عند بطلانها علاج أعضاء أخر» . ويحتاج «إلى العلم بأشكالها ؛ فإنه قد تستدرك من ذلك - أيضا - العلة بأى عضو هى ، مثال ذلك : أن الورم الهلالى الشكل فى الجانب الأيمن مادون الشراسيف[١] يدل على الورم فى الكبد ، إذ شكل الكبد كذلك» . ويحتاج «إلى العلم بأعظامها ، ومثاله : أن الحصاة التى تعظم عن مقدار بطون الكلى لا يمكن تولدها فى الكلى»[٢] .

ومن أبلغ ما ذكر الرازى فى هذا المجال قوله : «علل الأحشاء ونحوها من الأعضاء المستترة عن البصر أصعب تعرفًا ؛ لتواريها عن الحس ، والحاجة فى ذلك إلى استدلالات كثيرة»[٣] .

ويورد ابن أبى أصيبعة فى كتاب «عيون الأنباء فى طبقات الأطباء» كلاما للطبيب المصرى على بن رضوان – طبيب الخليفة الحاكم بأمر الله – يقول فيه : «تعرف العيوب بأن تنظر الى هيئة الأعضاء والسحنة والمزاج وملمس البشرة ، وتتفقد أفعال الأعضاء الباطنة والظاهرة ، مثل أن تنادى به من بعيد فتعتبر بذلك حال سمعه ، وأن تعتبر بصره بنظر الأشياء البعيدة والقريبة ، ولسانه بجودة الكلام ، وقوته بحمل الثقل والمسك والضبط والمشى ، وأنحاء ذلك مثل أن تنظر مشيه مقبلا ومدبرا ، ويُؤمر بالاستلقاء على ظهره ممدود اليدين قد نصب رجليه وصفهما ، وتعتبر بذلك حال أحشائه ، وتتعرف حال مزاج قلبه بالنبض والأخلاط ، ومزاج كبده بالبول وحال الأخلاط ، وتعتبر عقله بأن يُسأل عن أشياء ، وفهمه وطاعته بأن يؤمر بأشياء . . .» ، وقد علقت المستشرقة الألمانية «زيجريد هونكه» على ذلك فى كتابها الموسوم «شمس العرب تسطع على الغرب» – بقولها : «يخيل إلينا ونحن نسمع ما قاله ابن رضوان أننا أمام أستاذ فى الطب فى عصرنا الحاضر»[٤] .

وحقيقة الأمر أن اهتمام أطباء المسلمين بالطب السريرى كان جزءاً من اهتمامهم الأكيد بأهمية المنهج التجريبى فى العلوم الطبية ، حيث يتضح من المؤلفات الطبية العديدة

(١) الشراسيف : جمع شرسوف ، وهو الطرف اللين من الضلع مما يلى البطن (المعجم الوجيز) .
(٢) الموجز فى تاريخ الطب والصيدلة عند العرب ، مرجع سابق .
(٣) المرجع السابق .
(٤) زيجريد هونكه : شمس العرب تسطع على الغرب ، الترجمة العربية ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ١٩٨١م .

التى وصلتنا من تراث الحضارة الإسلامية أن المنهج التجريبى ، فى أدق تفاصيله المعروفة لنا حاليًا ، كان هو أسلوب الأطباء فى ممارسة الطب وتعليمه . ويقسم مؤرخ العلم المعاصر «جورج سارتون» أطباء المسلمين من هذه الزاوية إلى مجموعتين ، الأولى تضم فريق الأطباء الممارسين الذين اهتموا فى المقام الأول بالمرض والتشخيص والعلاج ، معتمدين على المشاهدات والملاحظات ، وكانت الفلسفة عندهم وسيلة لبلوغ هذه الغاية ، ويمثل هذا الاتجاه أبوبكر الرازى الطبيب الفيلسوف . أما المجموعة الثانية فتضم فريق الأطباء المدرسيين الذين درسوا الطب باعتباره جزءا من المعرفة لا غنى عنه ، وسعيهم إلى استكمال المعرفة هو الذى دفعهم إلى الطب وممارسته بأسلوب منطقى ، ولهذا أطلق عليهم «الفلاسفة الأطباء» ، ويمثلهم ابن سينا . وجلىّ أن كلا الفريقين يتبع المنهج التجريبى ويعتمد عليه ، بصرف النظر عن أنه غاية أو وسيلة ، فالتقدم نحو إدراك الحقيقة أو الاقتراب منها لا يتحقق إلا بالتجربة العملية .

وكان لهذا الاتجاه التجريبى أثره البالغ فى محاربة الشعوذة وتجار الطب ، ومكافحة الدجالين الذين كانوا يدعون معرفة المرض والتنبؤ بمستقبل المريض بمجرد النظر إلى بوله ، ويستعينون على ذلك بإرسال الجواسيس لاستكشاف أخبار مرضاهم البسطاء والتقاط أسرارهم ، حتى إذا جاء هؤلاء المرضى إليهم ، أسروا لهم بما عرفوه مدعين أن البول فضاح الأسرار(١) .

(د) طب النساء والتوليد :

تحققت على أيدى أطباء الحضارة الإسلامية اكتشافات رائدة فى مجال طب النساء والتوليد وطب الأطفال ، فقد درس ابن سينا أحوال العقم ، وعرف أن حالات منها تنشأ من فقدان الوفاق النفسى والطبيعى بين الزوجين ، ولا يكون الإنجاب ممكنا إلا إذا افترق الزوجان العقيمان لهذا السبب ، ثم تزوج كل واحد منهما زوجًا جديدًا .

واهتم أطباء المسلمين بالأمراض المختلفة التى تصيب النساء خاصة ، وذلك على أساس من علم التشريح والجراحة ، ودراسة الأعراض التى تطرأ على الصحة ، فتحدثوا عن تشريح الرحم ، وخصائص الطمث واحتباسه ، كما تحدثوا عن أورام الرحم بشىء من التفصيل ، على نحو ما يقول أبوبكر الرازى : «الورم فى الرحم ربما كان فى الرحم كلها ، وربما

(١) د . أحمد فؤاد باشا : فلسفة العلوم بنظرة إسلامية . القاهرة ، ١٩٨٤م .

كان فى فمها ، وقد يكون فى نواحيها ، والعلامات الدالة على الورم على الإطلاق وجع فى المفاصل ، وحرارة ، وتمدد وثقل فى الصلب والفخذين والعانة ، وعسر البول ، واحتباس البراز» .

ويضيف على بن عباس مزيدًا من الإيضاح عن تكوين ألياف الرحم وإصابتها بالسرطان ، فيقول : «فمنها ليف ذاهب الطول ، وهذا الليف أقل ما فيه ، وليف ذاهب واربا ، وليف ذاهب بالعرض . . وحدوث السرطان ربما كان مع تقرح أو من غير تقرح ، فما كان من غير تقرح فيستدل عليه بالوجع الشديد أسفل البطن والعانة . أما إذا كان مع تقرح فتعرض نفس الأعراض السابقة وكثيرا ما يسيل منها رطوبة مائية» . ويقول ابن سينا : «السرطان ورم صلب غير مستوى الشكل ، متفرع منه كالدوالى يؤلمه اللمس ، ردىء اللون ، ويزداد الألم»[١] .

أما فيما يتعلق بالتوليد فقد وضع «على بن عباس» صاحب كتاب «كامل الصناعة» أول نظرية علمية فى التوليد ؛ تقضى بأن حركة الرحم المولدة هى التى تدفع بالثمرة إلى الخروج نتيجة لانقباض العضلات . وبهذا يكون على بن عباس قد أثبت خطأ نظرية أبقراط القديمة عن خروج الجنين بنفسه من رحم أمه نتيجة حركته التلقائية .

ويعترف المنصفون من مؤرخى علوم الطب بفضل أبى القاسم الزهراوى ، الملقب بأمير الجراحة وفخرها فى عصر النهضة الإسلامية ؛ وذلك لما أسهم به فى تطوير طرق التوليد ، وإدخال آلات حديثة وعلاجات جديدة ، فقد درس طرق توليد الجنين فى حالة تقدم الأرجل على الرأس من باب الرحم ، وفى حالة تقدم الوجه على غيره من الأعضاء . كذلك أوصى أبوبكر الرازى بولادة الحوض ، ولكنها نسبت فيما بعد إلى غيره ، وعرفت فى كتب الطب الحديثة باسم «طريقة فالشر»[٢] .

على أن أفضل وصف لوضع الجنين الطبيعى فى جوف أمه يُعزى إلى «ابن القف» الذى ذكر فى كتابه «العمدة فى الجراحة» ما نصه : «أما قعوده فى جوف أمه فإنه يكون معتمدا بوجهه على رجليه ، وبراحتيه على ركبتيه ، وأنفه بين ذلك ، وساقه على فخذيه وهما على بطنه ، ووجهه إلى ظهر أمه»[٣] .

---

(١) الموجز فى تاريخ الطب والصيدلة عند العرب ، مرجع سابق .
(٢) زيجريد هونكه ، مرجع سابق .
(٣) الموجز فى تاريخ الطب والصيدلة عند العرب ، مرجع سابق .

واهتم أطباء المسلمين كثيرا بطب الأطفال ، وخصوصًا ما يتعلق بالأطفال المولودين لسبعة أشهر ، والأطفال حديثى الولادة ، من حيث استقبالهم حين الولادة ، وكيفية تدثيرهم وتغذيتهم . وأجمعوا على أن رضاعة لبن الأم أفضل طرق التغذية للطفل ، وحذروا من الفطام فى الصيف الحار أو الشتاء القارس ، وهى أمور يؤيدها الطب الحديث بعد بحث طويل . وكتبوا كلاما مفيدا غير مسبوق عن معالجة الأمراض التى تصيب الأطفال كالإسهال ، والربو ، والبول فى الفراش ، والتشنجات ، والحول ، والحميات ، وغيرها .

ومن الجدير بالذكر أن النساء العرب كنّ يخجلن أن يفحصهن الرجال فى أمراضهن الخاصة ، وفى حالات التوليد كان أكثر الأطباء العرب يأبون أن يفحصوا النساء ، فكانوا يعلمون القوابل طرق الفحص ، وكيف ينقلن المعلومات التى يدل عليها الفحص إلى الأطباء ، فيعرفون بذلك الكثير عن هذه الأمراض . وتشهد المؤلفات التراثية فى تاريخ الطب أن الزهراوى كان يقف خلف ستار خفيف ، ويعطى إرشاداته المناسبة للقابلات فى الحالات العسرة ، كما تذكر هذه المؤلفات قول الرازى : «إذا رأيت احتباس الطمث فقل للقابلة أن تجس عنق الرحم» . بل إن الزهراوى صنف مؤلفا خاصا فى «تعليم القوابل كيف يعالجن الأجنة الحية إذا خرجت على غير الشكل الطبيعى» [١] .

ومع ما فى هذه الطريقة ـ غير المباشرة ـ فى علاج النساء من صعوبة ، فقد استطاع أطباء المسلين أن يجمعوا معلومات قيمة عن أمراض النساء والقبالة(التوليد) ، وطب الأطفال ، ودونوا فى ذلك العديد من المؤلفات القيمة .

(هـ) طب العيون :

تميز طب العيون ـ شأنه شأن باقى فروع الطب الإسلامى ـ بأنه لا يختلف عن أسلوب الطب الحديث ، من حيث المنهجية التى يتبعها الأطباء المعاصرون . فقد كان الرازى – على سبيل المثال – يرى أن الطبيب يحتاج فى استدلال علل الأعضاء الباطنة إلى العلم بجواهرها أولاً ، بأن تكون شوهدت بالتشريح ، وإلى العلم بمواضعها من البدن ، وإلى العلم بأفعالها (أى الفسيولوجيا أو وظائف الأعضاء) ، وإلى العلم بأعظامها وما تحتوى عليه (أى المورفولوجيا) ، وإلى العلم بفضولها التى تدفع عنها (أى الباثولوجيا أو علم طبائع الأمراض) ؛ لأن من لم يعرف ذلك لم يكن علاجه على صواب .

---

(١) الموجز فى تاريخ الطب والصيدلة عند العرب ، مرجع سابق .

ولقد رفض الرازى - نفسه - أن تجرى له عملية جراحية فى عينيه ، عندما فقد بصره فى أواخر أيامه ؛ وذلك لأنه سأل الجراح قبل إن يشرع فى عمليته عن عدد طبقات أنسجة العين ، فلما اضطرب الطبيب وصمت قال له الرازى : «إن من يجهل جواب هذا السؤال عليه ألا يمسك بأية آلة يعبث بها فى عينى»(١) .

ومن ناحية أخرى ، كان أطباء الحضارة الإسلامية يخضعون لرقابة الدولة ، وفقا للائحة خاصة تنظم أسلوب تعاملهم مع الناس ، فكان المحتسب - وهو من أرقى الموظفين فى الدولة - يكلف بتحليفهم قسم «أبقراط» ، ويحرص على التأكد من حيازتهم الآلات المفروضة لصناعتهم ، واجتيازهم الامتحانات المفروضة عليهم ، ويسعى لضمان ألا يسلموا آلاتهم إلى الدجالين غير المرخصين .

وكان أطباء المسلمين - فى علاجهم لأمراض العين - يميزون بين العلاجات العامة والعلاجات الموضعية ، ويصفون الراحة والسكون فى الحالات الشديدة ، ويعنون بغذاء المريض ، فيجعلونه خفيفا لطيفا ، ويستعملون الأشياء القابضة والمحللة والمنضجة والمخدرة . فهذا هو على بن عباس يقول فى كتابه «الصناعة الكاملة» الذى صنفه للملك عضد الدولة « . . . إلا أن العين لما كان عضوا زكى الحس ، لم يجز أن تستعمل فيها أدوية قوية ، ولا تورد عليها أدوية كثيرة دفعة ، انظر ؛ فإذا كان السبب باديًا - أعنى من حر الشمس والغبار والدخان - فإن برءه يكون أولاً بزوال تلك الأسباب ، واستعمال الأدوية المبرئة المقوية للعين ، كالضماد بخرق مبلولة بماء ورد وشىء يسير من الكافور . . .»(٢) .

ولم يترك أطباء المسلمين مرضا من أمراض العين إلا وصفوا أعراضه ، والطرق الناجعة لعلاجه ؛ فتحدثوا عن الانتفاخ ، والحكة ، والقروح ، والبتر ، ، والنتوء ، والشعيرة ، والالتزاق ، والشعر الزائد ، والرمد بأنواعه ، وغير ذلك . وتحتوى كتب الكحالين (أطباء العيون) على شروح تفصيلية للعلاج والعمليات الجراحية ، من ذلك وصفهم لماء العين وأنواعه ومضاعفاته : فمنه ما لونه شبيه بلون الهواء ، ومنه ما يشبه لون الزجاج ، ومنه ما هو أبيض ، ومنه أخضر ، ومنه مائل الى الزرقة ، وهى العلة المعروفة باسم «الجلوكوما» . والماء منه ما إذا قدح أنجب ، ومنه مالا ينجب عند القدح ، وامتحان ذلك بأن تضع يدك على إحدى العينين ، فإن رأيت ثقب العين الأخرى يتسع ، فاعلم أنه متى قدحت أنجب القدح فيها ،

---

(١) د . أحمد فؤاد باشا : التراث العلمى للحضارة الإسلامية ، مرجع سابق .

(٢) الموجز فى تاريخ الطب والصيدلة عند العرب ، مرجع سابق .

وأبصر الإنسان ، وإن لم يتسع فإنها إذا قدحت لم ينجب ولم يبصر الإنسان ، وتمتحنه - أيضًا - بأن تقيم العليل فى الشمس ، وتأمره أن ينظر إليك جيدًا ، وتضع إبهامك على جفنه الأعلى ، وتعرك بها العين وتنحيها بسرعة ، ثم تفتح العين وتنظر ، فإن تحرك الماء حين تنحى إبهامك عنه - فتفرق - فإن ذلك الماء لا ينجب فيه القدح ، وإن بقى مجتمعا لا يتفرق ، فإن الماء قد استحكم والقدح قد ينجب فيه . وعلامة أخرى أجود من ذلك ، إنك متى رأيت لون الماء كلون الحديد المجلى ، أو كلون الرصاص ، فاعلم أن الماء قد استحكم والقدح ينجب فيه ، أما ما كان لونه لون الجص فإنه جامد جدًا ولا يصلح القدح فيه .

واشتهرت المؤلفات المتخصصة فى مجال طب العيون ، مثل كتاب «المنتخب فى علاج أمراض العين» لعمار بن على الموصلى و«تذكرة الكحالين» لعلى بن عيسى الكحال . وفيما يلى نذكر أسماء بعض الأمراض التى ورد ذكرها فى المؤلفات الطبية التراثية ، وما يقابلها فى علم طب العيون المعاصر :[1] .

السبل	PANNUS	الشرناق	PALPEBRAL
الودقة	ECHYMOSI	البردة	CHALAZION
الصفرة	TAUNDICE	المدة تحت القرنية	HYPOION
الشعيرة	ORGELET	الظفرة	PTERYGIUM
الالتزاق	SYNNECHIA	الخيالات	FLYVISION
الغرب(مرض المآقى)	LACRYMAL ABSCESS	القدح	PARACETENSIS
المياه الزرقاء	GLAUCOMA	الكمنة	AMAUROSIS

(و) طب الفم والأسنان :

بدأ طب الفم والأسنان عند العرب فى عصر الحضارة الإسلامية - كما بدأت فروع الطب الأخرى ، بل وفروع العلوم التجريبية كلها عندهم - من تراث ضئيل وصل إليهم نتيجة انفتاحهم على دول كثيرة ذات حضارات موروثة . وبالرغم من أن طب الفم والأسنان كان يحظى من جانب القدماء بمزيد من الاهتمام ، إلا أنه لم يصل الى مرحلة متقدمة من التطور إلا فى عصر الازدهار العلمى للحضارة الإسلامية ، بدءاً من القرن التاسع الميلادى .

(١) المرجع السابق .

وقد برز أبو القاسم الزهراوى فى العلاج الجراحى لأمراض الفم ، فهو يتحدث عن قطع اللحم الزائد فى اللثة فيقول : «كثيرًا ما ينبت على اللثة لحم زائد . . فينبغى أن تعلقه بصنارة ، أو تمسكه بمنقاش ، وتقطعه عند أصله ، وتترك المادة تسيل والدم ، ثم تضع على الموضع زاجًا مسحوقًا ، أو الذرورات القابضة المجففة ، فإن عاد بعد ذلك اللحم ـ وكثيرا ما يعود ـ فاقطع باقيه واكوه ، فإنه لا يعود بعد الكى إن شاء الله تعالى» .

وتكلم الزهراوى فى موضع آخر من كتابه «التصريف لمن عجز عن التأليف» عن الأورام تحت اللسان ، فقال : قد يحدث تحت اللسان ورم شبيه بالضفدع الصغير تمنع اللسان عن فعله الطبيعي . . وربما عظم حتى يملأ الفم ، والعمل فيه أن يفتح العليل فمه بإزاء الشمس ، وتنظر من الورم ، فإن رأيته كمد اللون وأسود صلبا ، ولم يجد له العليل حسا ـ فلا تعرض له فإنه سرطان ، وإن كان مائلاً الى البياض ، فيه رطوبة ، فألق فيه الصنارة ، وشقّه بمبضع لطيف من كل جهة ، فإن غلبك الدم حين عملك ، فضع عليه زاجا مسحوقا حتى ينقطع الدم ، ثم عد إلى عملك حتى تخرجه بكامله ، ثم يتمضمض بالخل والملح ، ثم تعالجه بسائر العلاج الموافق لذلك حتى يبرأ إن شاء الله تعالى .

وقدم الزهراوى وصفًا تفصيليًا لعلاج أمراض أخرى تعرض فى الفم ، مثل تحرير اللسان المعقود ، وكيف يقطع الشكال الرابط له تحته حتى يعود طبيعيًا ، ويصف ما يتبع ذلك من دواء . ومثل إخراج العقد التى تعرض فى الشفتين على هيئة أورام صغار يشبه بعضها حب الكرسنة وبعضها أصغر ، ويصف ذلك بأن «تقلب الشفة وتشق على كل عقدة ، وتعلقها بالصنارة ، وتقطعها من كل جهة ، ثم تحشو الموضع بعد القطع بزاج مسحوق حتى ينقطع الدم ، ثم يتمضمض بالخل ، وتعالج الموضع ـ بما فيه قبض ـ إلى أن يبرأ الجرح إن شاء الله تعالى» . ومثل جبر الفك الأسفل إذا انكسر ، وخلع الأسنان ، وغير ذلك . ويصف لكل عملية الآلات الجراحية اللازمة لها ، ويصورها صورًا واضحة ومفصلة ، بما يقربها للدارسين أو القارئين ، ضاربا بذلك المثل فى السبق إلى استخدام الأشكال والرسوم التوضيحية ، على نحو ما نجد فى كتب الطب الحديثة .

وعرض الزهراوى لأول مرة فى تاريخ الطب لوصف الألم المتنقل وخطره ، مما يضعه على مستوى متقدم بين علماء الطب حتى العصر الحاضر ، فهو يقول : «إنه ينبغى أن تعالج الضرس من وجعه بكل حيلة . . . وكثيرًا ما يخدع العليل المرض ، ويظن أنه فى الضرس الصحيح فيقلعها ، ثم لا يذهب الوجع حتى يقلع الضرس المريض» .

ويبدو الزهراوى بارعًا دقيقًا فى وصفه لعملية القلع ذاتها ، وهو يستعمل لذلك الكلاليب و«الجفوت» والروافع والمباضع ، وهو يشرح فى ذلك كل خطوة وكل آلة ، ويقول على سبيل المثال : «فإذا صح عندك الضرس الوجع بنفسه ، فحينئذ ينبغى أن يشرط حول السن بمبضع فيه قوة حتى يحل اللثة من كل جهة ، ثم تحركه بإصبعك ، أو بالكلاليب اللطاف أولا قليلاً حتى تزعزعه ، ثم تمكن حينئذ فيه الكلبتين الكبار تمكينا جيدًا ، ورأس العليل بين ركبتيك قد تعقبه يتحرك ، ثم تجذب الضرس على استقامته لئلا تكسره ، فإن لم يخرج وإلا تتخذ أحد تلك الآلات ، فادخل تحته من كل جهة برفق ، ودم تحريكه كما فعلت أولا» . ثم يذكر أنه بعد القلع : «إن العظم به عفن فاجرده من عفنه واسوداده حتى ينقى ، ثم تعالجه حتى يبرأ» ، وهو فى ذلك يشير إشارة واضحة إلى كيفية معالجة العفن مع القلع أو بعده . وبمثل ذلك يشير ابن سينا ـ أيضًا ـ ويركز على أهمية التشخيص وخطر القلع إذا كان هناك عفن فى الفك ؛ فذلك يهيج الوجع الشديد ، وربما هيج وجع العين والحمى .

ولا يفوت الزهراوى أن يحذر من : «أن تصنع ما يصنع جهّال الكلابين ، فى جسرهم وإقدامهم على قلعه (أى الضرس) من غير أن يستعملوا ما وصفنا ، وكثيرًا ما يجذبون على الناس بلايا عظيمة ، وأشرها أن ينكسر الضرس ويبقى أصولها كلها أوبعضها ، وإما أن يقلع بعض عظام الفك» .

كذلك عرض أطباء الحضارة الإسلامية لعلاج الأضراس واللهاة المسترخية بالكى ؛ استنادًا إلى قاعدة «آخر الدواء الكى» . وكان من الطبيعى أن يتحدثوا ـ أيضًا ـ عن التخدير والتسكين ، فقد عرفوا فى ميدان الجراحة ما يسمى «المرقد» وهو المخدر العام ، وكان ذلك يقوم على استعمال ما أسموه «بالاسفنجة المخدرة» التى توضع على أنف المريض ، فتمتص الأنسجة المخاطية موادّها المخدرة ، ويدخل المريض فى سبات عميق . كما عُرف التخدير الموضعى ، فوصف ابن سينا أحد فروعه ، وهو التخدير بالبرودة ، بقوله : «ومن جملة ما يخدر من غير أذى الماء المبرد بالثلج تبريدًا بالغًا ، أخذًا بعد أخذ ، حتى يخدر السن فيسكن الوجع البتة ، وان كان ربما زاد فى الابتداء» .

وتزخر المؤلفات الطبية التراثية بتفاصيل أخرى كثيرة تتناول ترميم الأسنان المصابة بالتسوس وحشوها ، وعلاج القرحة فى جلدة الفم واللسان ، وعلاج كثرة البصاق واللعاب وسيلانه فى النوم ، وإزالة الرواسب عن الأسنان ، وتعويض الأسنان المفقودة ، وردّ الأسنان وتقويمها إذا مانبتت فى غير مجراها الطبيعي . ولم يفت علماء المسلمين أن يتحدثوا عن طب الأسنان الوقائى ، ويفردوا فى مؤلفاتهم فصولا فى حفظ صحة الفم والأسنان .

(ز) الطب النفسانى :

اهتم علماء الحضارة الإسلامية لأول مرة فى تاريخ الطب بالأمراض العصبية ، وأثر الوهم والعوامل النفسية فى إحداث الأمراض العضوية . ويعد أبو بكر الرازى أول من وضع أصول علم الطب النفسانى ، وألف فيه كتابا بعنوان «الطب الروحانى» ؛ ليكون - كما قال - قرينًا وعديلا لكتاب «المنصورى» الذى ألفه فى الطب الجسمانى ، فقال فى هذا الموضوع : «قد يكون لسوء الهضم أسباب بخلاف رداءة الكبد والطحال ، منها حال الهواء ، والاستحمام ، ونقصان الشرب ، وكثرة إخراج الدم ، والهموم النفسية ، . . .» ، ففى هذه الحالة ، قد يكون المرض جسمانيًا والسبب نفسانيًا ، وهو ما يعنى به أحدث فروع الطب المعروف باسم «الطب النفسانى» .

كذلك درس ابن سينا النبض وحالاته دراسة وافية ، وبيّن أثر العوامل النفسية فى اضطرابه ، وتوسع فى دراسة الأمراض العصبية والاضطرابات النفسية ، وعالجها عن فهم ودراية ، وقال : «علينا أن نعلم أن أحسن العلاجات وأنجعها هى العلاجات التى تقوم على تقوية قوى المريض النفسانية والروحية ، وتشجيعه ليحسن مكافحة المرض ، وتجميل محيطه وأسماعه بما عذب من الموسيقى ، وجمعه بالناس الذين يحبهم» .

وكان الكندى - فيلسوف العرب وعالم الرياضيات والفلسفة والموسيقى - يتخذ من الألحان وسيلة لعلاج مرضاه ، ورد طبيعتهم الخارجية عن الاعتدال إلى التوازن النفسى والعقلى الذى يعيد الصحة .

كذلك كتب الحسن بن الهيثم عن تأثير الموسيقى فى الإنسان والحيوان . وكان يخصّص فى كل مستشفى كبير قسم لعلاج الأمراض العصبية والعقلية ، بطرق إنسانية مبتكرة .

ونجد فى مؤلفات الطب التراثية وصف الكثير من الأمراض النفسية والاضطرابات العقلية ، مثل : اختلاط الذهن ، والهذيان ، والرعونة ، والمانيا MANIA ، والمالنخوليا .

وبينما كان هذا هو الحال مع الطب النفسانى فى عصر النهضة الإسلامية ، كان مرضى الأعصاب فى أوربا يعاملون كمجرمين ، فيسجنون ويعذبون ؛ اعتقادًا بأن هذا المرض لعنة من السماء حلت بصاحبها عقابًا له على إثم زعموا أنه ارتكبه ، أو أن شيطانًا دخل فى نفسه ولا سبيل الى طرده إلا بالقوة . وبقيت هذه الخرافات شائعة فى الغرب حتى أواخر القرن

الثامن عشر الميلادى عندما تجرأت بعض الأصوات وبدأت تنادى بضرورة تحرير المجانين السجناء وتسليمهم لعناية الأطباء[١] .

(ح) الطب البيئى :

لقد سبق الدين الإسلامى الحنيف إلى وضع تشريعات محكمة لرعاية البيئة وحمايتها من آفات التلوث والفساد ، ورسم المنهج الإسلامى حدود هذه التشريعات على أساس الالتزام بمبدأين أساسيين يحددان مسئولية الإنسان حيال البيئة التى يعيش فيها : أما المبدأ الأول فهو «درء المفاسد» حتى لا تقع بالبلاد والعباد ، وتسبب الأذى للفرد والمجتمع والبيئة ؛ حيث لا ضرر ولا ضرار ، وأما المبدأ الثانى فهو «جلب المصالح» وبذل كل الجهود التى من شأنها أن تحقق الخير والمنفعة للجماعة البشرية .

وأهم ما يميز المنهج الإسلامى فى الحفاظ على البيئة هو الأمر بالتوسط والاعتدال فى كل تصرفات الإنسان ، باعتباره من أهم عوامل الخلل والاضطراب في منظومة التوازن البيئى المحكم الذى وهبه الله ـ سبحانه وتعالى ـ للحياة والأحياء فى هذا الكون . قال تعالى ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (سورة الروم :٤١) . ولقد أقام الإسلام بناءه كله على الوسطية والتوازن والاعتدال والقصد ، وحثت التعاليم الإسلامية على حماية البيئة والاهتمام بالنظافة العامة ، واعتبرت التلوث بكل أشكاله نجاسة كريهة يجب على المسلمين التطهر منها . وقد ورد لفظ «طهر» ومشتقاته فى القرآن الكريم أكثر من ثلاثين مرة ؛ لإيجاب طهارة البدن والنفس المؤمنة والبيئة الإنسانية فى الظاهر والباطن .

وينسب إلى علماء المسلمين وأطبائهم فضل السبق إلى الاهتمام بالمشكلات البيئية ، وتأسيس ما يعرف اليوم بعلم الطب البيئى ، فقد علموا ـ بحكم تخصصهم كأطباء ـ أثر البيئة على الصحة ، وعرفوا ـ بحكم عقيدتهم الإسلامية ـ أهمية الطب باعتباره علمًا نافعًا يهدف إلى صحة العقل والنفس والبدن ، التى تعين على توفير كافة المقاصد الرئيسية الخمس للشريعة الإسلامية كما يراها الفقهاء ، وهي بترتيب أهميتها : الدين والنفس والعقل والنسل والمال . ففي كتابه «دفع مضار الأبدان بأرض مصر» يتحدث ابن رضوان المصرى عن الأمراض الوافدة (أى المعدية) ، ويعزوها إلى أربعة أسباب هى : «تغير كيفية الهواء والماء والغذاء والأحداث النفسانية» ، ثم ينصح بضرورة أن «تكون المساكن فسيحة لينحل منها من

(١) الموجز فى تاريخ الطب والصيدلة عند العرب ، مرجع سابق .

البخار (أى الرطوبة)مقدار وافر ، ويكون لها مخاريق (طيقان وشبابيك وأبواب) ينحل منها البخار ، ويدخل منها شعاع الشمس ، وينبغى أن تكون مرخمة ، أو مبلطة ، أو معمولة بالجص والجبس ، ويتعاهد تنظيفها ، وتفرش فى الأوقات الحارة بالحصر الباردة» . ويحذر ابن رضوان من خطورة التلوث الهوائى والمائى على الصحة قائلا : «الهواء يتغير معه الأشياء التى يحيط بها ، وإن الماء إذا تغير ـ وإن كان كثيرا كماء النيل ـ غير الهواء . وكذلك أنفاس الناس تغير الهواء إذا كثر فيهم المرض . . من أجل هذا ينبغى أن تصرف العناية فى كل مرض وافد الى إصلاح الهواء» (١) . وقد حظى هذا الكتاب لابن رضوان باهتمام الباحثين مؤخرًا بعد أن ترجمه ميشيل دولز M.W.Dols إلى الإنجليزية ، ونشره سنة ١٩٨٤م .

ويزخر التراث الإسلامى بمؤلفات عديدة حول البيئة وسلامتها من جوانب مختلفة ؛ فعلى سبيل المثال ، ألف الكندى «رسالة فى الأبخرة المصلحة للجو من الأوباء» ، و«رسالة فى الأدوية المشفية من الروائح المؤذية» ، ووضع ابن المبرّد كتابا أسماه «فنون المنون فى الوباء والطاعون» ، وتكلم ابن سينا بالتفصيل فى كتابه «القانون» عن تلوث المياه بشكل عام ، وكيفية معالجة هذا التلوث لتصبح المياه صالحة للاستعمال ، كما وضع شروطًا تتعلق بطبيعة الماء والهواء المؤثرين فى المكان عند اختيار موقع ما للسكنى .

أما الرازى فقد نشد سلامة البيئة عندما استشاره عضد الدولة فى اختيار موقع لمستشفى ببغداد ، فاختار الناحية التى لا يفسد فيها اللحم بسرعة . وكانت المستشفيات بصورة عامة تتمتع بموقع تتوافر فيه كل شروط الصحة والجمال ، فعندما أراد السلطان صلاح الدين أن ينشئ مستشفى فى القاهرة اختار لها أحد قصوره الفخمة البعيدة عن الضوضاء ، وحوله إلى مستشفى ضخم كبير هو المستشفى الناصرى .

وقد ألف الرازى «رسالة فى تأثير فصل الربيع وتغير الهواء تبعا لذلك» ، بينما تحدث أبو مروان الأندلسى فى كتابه «التيسير فى المداواة والتدبير» عن فساد الهواء الذى يهب من المستنقعات والبرك ذات الماء الراكد . وجاء فى كتاب «بستان الأطباء وروضة الألباء» لابن المطران الدمشقى ـ ما يؤكد ضرورة مراعاة تأثير البيئة عند تشخيص المرض ، فقال : «ينبغى للطبيب إذا أقدم على مداواة قوم فى بلد ، أن ينظر فى وضع المدينة ، ومزاج الهواء المحيط بها ، والمياه الجارية فيها ، والتدبير الخاص الذى يستعمله قوم دون قوم ؛ فإن هذه

---

(١) على بن رضوان : دفع مضار الأبدان بأرض مصر ، ابن قتيبة ، الكويت ١٩٩٥م .

هى الأصول ، ثم بعدها النظر فى سائر الشرائط» . وهذه رؤية متقدمة فى علم الطب البيئى الذى أصبح من أهم العلوم الطبية المعاصرة .

وكتب ابن قيم الجوزية فى كتابه «الطب النبوى» فصلا عن الأوبئة التى تنتشر بسبب التلوث الهوائى ، والاحتراز منها ، ولخص ذلك الفصل بقوله : «والمقصود : أن فساد الهواء جزء من أجزاء السبب التام والعلة الفاعلة للطاعون ، وأن فساد جوهر الهواء هو الموجب لحدوث الوباء ، وفساده يكون لاستحالة جوهره إلى الرداءة ؛ لغلبة إحدى الكيفيات الرديئة عليه ، كالعفونة والنتن والسمية ، فى أى وقت كان من أوقات السنة ، وإن كان أكثر حدوثه فى أواخر فصل الصيف وفى الخريف غالبا ، لكثرة اجتماع الفضلات المرارية الحادة وغيرها فى فصل الصيف ، وعدم تحللها فى آخره . وفى الخريف لبرد الجو وردغة الأبخرة والفضلات التى كانت تتحلل فى فصل الصيف ، فتنحصر فتسخن وتعفن ، فتحدث الأمراض العفنة ، ولا سيما إذا صادفت البدن مستعدا قابلا رهلا قليل الحركة كثير المواد . فهذا لا يكاد يفلت من العطب» .

ويتضح من هذه الأمثلة التى ذكرناها أن علماء الحضارة الإسلامية تناولوا المشكلات البيئية فى أجزاء أو فصول من مؤلفاتهم . ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، حيث نجد من بين علماء المسلمين من رأى ضرورة معالجة الموضوع فى كتاب مستقل ليؤكد أهميته فى حياة الناس على مر العصور . فقد صنف محمد بن أحمد التميمى فى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) كتابًا كاملاً عن التلوث البيئى وأسبابه وآثاره وطرق مكافحته والوقاية منه ، وفصل الحديث فيه عن ثلاثية الهواء والماء والتربة ، وتبادل التلوث بين عناصرها ، وجعل عنوانه : «مادة البقاء فى إصلاح فساد الهواء والتحرز من ضرر الأوباء» ، وأوضح فى مقدمته الغرض من تأليفه بقوله : « . . . وكان الباعث لى على تأليف هذا الكتاب والعناية بهذا الأمر ، أنى نظرت حال علماء الأطباء ، الساكنين بالأمصار الفاسدة الأهوية والبلدان المشهورة بالأوبئة ، الكثيرة الأمراض ، التى يحدث بها عند انقلابات فصول السنة الأمراض القاتلة والطواعين المهلكة ؛ لأجل فساد أهويتها بمجاورة الأنهار الكثيرة المدود ، والمدائن التى تحدق بها الغدران ، ومناقع المياه الآجنة ، والمشارب الكدرة ، التى تتصاعد أبخرتها إلى الجو فتفسده وتغلظه ، مع ما يعضد ذلك ويقويه من أبخرة الزبول ومجارى مياه الحمامات بها ، وأبخرة الجيف من الحيوانات الميته الملقاة فى أفنيتها وظواهرها وعلى ممر مسالك طرقاتها ، كأرض مصر ودمشق ، والمدن التى تلى سواحل البحار ويعظم بها مدود الأنهار ، مثل : بغداد ، والبصرة ، والأهواز ، وفارس ، وسواحل بحر الهند ، كعمان ، وسيراف ، وعدن ،

وما جرى مجرى هذه الأمصار العظام التى تجاور البحار ، وتخترقها الأنهار ، وتحدق بها مناقع المياه الراكدة والجارية ، وبخاص ما كان منها منكشفا لمهب ريح الجنوب مكتفلا بالجبال وبأقوار الرمال عن مهب ريح الشمال ، فكان الأولى بالذين يتولون منهم علاج ملوكها وخاصة رؤسائها وعامة أهلها ، أن تكون عنايتهم بمداواة الهواء الفاسد ، المحدث لوقوع الأوبئة بها ، الجالب الطواعين على سكانها ، أولى وأوجب من عنايتهم بمداواة ما يتحصل بذلك من الأمراض المخوفة فى أجساد أهلها . وأن يصرفوا هممهم إلى ذلك ويفرغوا له نفوسهم . .»(١) .

وهكذا ، كلما أجلنا النظر فى نصوص الشريعة الإسلامية ، وصفحات التراث الإسلامى وجدنا منهجا إسلاميا حكيما ينهى عن التلوث والفساد بكل صوره وأشكاله . وليس التلوث الذى تعانى منه البشرية اليوم فى مختلف النظم البيئية سوى مظهر من مظاهر الفساد فى الأرض الذى جلبه الإنسان لنفسه ، ولو طبقت تشريعات الإسلام على الوجه الأكمل لما وصل الإنسان ببيئته وصحته إلى هذه الدرجة الخطيرة من التدهور .

(ط) الطب الوقائـى :

يحتل الطب الوقائى في عصرنا منزلة مهمة بين فروع العلوم الطبية ، وقد عرف المسلمون أهميته ، وكانوا يطلقون عليه «حفظ الصحة» ، فقد عرّفوا الطب بأنه علم يتعرف منه أحوال البدن والنفس ؛ ليحفظ الصحة حاصلة ويستردها زائلة ، وعرف ابن أبى أصيبعة الصناعة الطبية بأنها «حافظة للصحة الموجودة ، ورادّة للصحة المفقودة» ، وقدم المسلمون حفظ الصحة على إعادتها ، فقالوا : إن حرز الشىء الموجود أجلّ من طلب الشىء المفقود . وقد كان لتوجيهات الإسلام وتعاليمه الأثر البالغ فى العناية بحفظ الصحة ، سواء فيما فرض من فروض الصلاة والزكاة والصيام والحج ، أو فيما أمر من تحميل المسئولية عن البدن والحث على التداوى والتوجيه إلى النظافة الشخصية والعامة ، وإلى الحفاظ على البيئة واختيار الأطعمة النافعة ، وعدم الإسراف في الطعام والوقاية من الأمراض ، أو فيما نهى من تحريم للسحر والكهانة فى الطب . وقد كونت هذه التوجيهات والتعاليم الإسلامية الأساس الذي قام عليه الطب فى عصر الحضارة العربية الإسلامية ، وظهر ذلك في العديد من المؤلفات ، مثل كتاب «فردوس الحكمة» لابن زين الطبرى ، الذى احتوى بحوثًا متفرقة فى حفظ الصحة ، تدور حول تربية الأطفال والأغذية والأشربة والطعوم والروائح بأنواعها ،

---

(١) محمد بن أحمد التميمى المقدسى : مادة البقاء فى إصلاح فساد الهواء والتحرز من الأوباء ، معهد المخطوطات العربية ، القاهرة ١٩٩٩م .

وموضوعات تتعلق بالبلدان والمياه والرياح ، وكتاب «تقويم الصحة بالأسباب الستة» للكندى ، الذى احتوى على إصلاح الهواء الواصل إلى القلب ، وتقدير المأكل والمشرب وتعديل الحركات والسكون ، ومنع النفس من الإغراق فى النوم واليقظة ، وتقدير استفراغ الفضلات ، وأخذ النفس بالقصد فى الغضب والهم والفزع ، وهناك كتب أخرى كثيرة للرازى ، وعلى بن عباس ، وابن سعيد التميمى ، وابن الجزار ، وابن بطلان البغدادى ، وابن رضوان المصرى ، وابن زهر . . وغيرهم .

ويمكن التأصيل لعلم الطب الوقائى فى التراث الطبى الإسلامى بكتاب «مصالح الأبدان والأنفس» لأبى زيد البلخى ، باعتباره نموذجًا معبرًا عن التأليف الطبى فى عصر الصدارة بالنسبة للحضارة العربية الإسلامية ؛ إذ عاش البلخى فى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى وبداية القرن الرابع الهجرى . كما يعتبر هذا الكتاب من أوائل المؤلفات الطبية العربية التي أفردت حفظ الصحة فى مصنف خاص ، فهو يبحث في موضوعات حفظ صحة البدن وحفظ صحة النفس . أما إعادة الصحة فإنها - فيما يقول البلخى- داخلة فى صناعة المداواة (أى الطب العلاجى) . ويقع الكتاب فى مقالتين : الأولى مصالح الأبدان ، والثانية مصالح الأنفس .

تحتوى المقالة الأولى على أربعة عشر بابًا : فى الإخبار عن مبلغ الحاجة إلى تعهد الأبدان ومنفعة ذلك وعائدته ، وفى وصف أوائل الأشياء ، وبدء طبيعة الإنسان وخلقته وتركيب أعضائه ، وفى تدبير المساكن والمياه والأهوية ، وفى تدبير ما يقى الحر والبرد من الأكنان والملابس ، وفى تدبير المطاعم ، والمشارب ، والمشمومات ، والنوم ، والباه ، والاستحمام ، والحركات الرياضية ، وما يتبع الحركات الرياضية من غمز البدن ودلكه ، وفى تدبير السماع ، وفى تدبير إعادة الصحة .

وتحتوى المقالة الثانية على ثمانية أبواب : فى الإخبار عن مبالغ الحاجة إلى تدبير مصالح الأنفس ، وفى تدبير حفظ صحة الأنفس عليها ، وفى تدبير إعادة صحة الأنفس ، وفى ذكر الأعراض النفسانية ، وفى تدبير دفع الحزن والجزع ، وفى الاحتيال لدفع وساوس الصدر وأحاديث النفس .

وأوضح البلخى فى هذا الكتاب أن الكلام فى مصالح الأبدان والنفس أمرٌ لم تجر عادة الأطباء - قبله - بذكره وإيقاعه فى الكتب التى كانوا يؤلفونها فى الطب ومصالح الأبدان

ومعالجات العلل العارضة لها ؛ وذلك لأن القول ليس هو من جنس صناعتهم ، ولأن معالجات الأمراض النفسانية ليست من جنس ما يتعاطونه من الفصد وسقى الأدوية ، وما أشبهها من المعالجات . ولهذا نجد البلخى قد استخدم بكثرة مصطلحات حفظ الصحة دون المصطلحات العلاجية ؛ بسبب عدم تطرقه للأمراض . ومن هذه المصطلحات : التدابير ، التعهد ، الصيانة ، مصالح الأبدان ، مصالح الأنفس ، حفظ الصحة ، السلامة ، وحسن العائدة على البدن والنفس [(١)] .

(ى) الطب الاجتماعى :

قال تعالى : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الروم :٢١) .

فى هذه الآية الكريمة يضع القرآن الكريم الأساس السليم لبناء اللبنة الأولى فى صرح المجتمع السوى ، بل إنه ينبه الأذهان إلى نوع هام من الطب لم يفطن إليه العلماء إلا حديثا ، عندما اتفقوا على ضرورة تعديل برامج التعليم الطبى فى العالم ، عن طريق إدخال بعض العلوم المستحدثة فى دراسة الطب ، وأهمها «علم الطب الاجتماعى» الذى يبحث عن بناء مجتمع صالح ، خال من الجهل والفقر والمرض والخوف والقلق ، فهذه كلها أمراض اجتماعية يجب القضاء عليها لإصلاح حياة الفرد والمجتمع . وقد اكتسب هذا العلم أهمية متزايدة خلال العقود الأخيرة ؛ نتيجة للاتجاه نحو البحث فى علاقة الأمراض ومسبباتها بالبيئة والمجتمع .

ولما كانت الأسرة هى وحدة بناء المجتمع الذى تتكون منه الدولة ، لذا وجب أن تسود الأسرة روح السلام والوئام ، وأن تبدأ تكوينها بزواج بين الذكر والأنثى يحقق السكن والطمأنينة والأمن والسلامة ، ويكفل استمرار الراحة الجسدية والروحية دون نصب أو عداء . ولعل فى التعبير القرآنى بقوله تعالى : ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ ...﴾ (الروم :٢١) ما يدل دلالة قوية على أهمية الوحدة والانسجام فى هذا التكوين الاجتماعى .

وقد كفل الإسلام حماية كل فرد من أفراد الأسرة ، فرفع من شأن الزوجة وأنزل سورة كاملة باسمها ـ هى سورة النساء ـ جمعت كافة التشريعات التى تصون حقوقها ، وجعل الأمر حقا وعدلا بينها وبين زوجها ، وخص الرجال بدرجة ؛ نظرًا لما يمتازون به من مسئولية

(١) محمود مصرى : قراءة فى مخطوط «مصالح الأبدان والأنفس» لأبى زيد البلخى ، جامعة حلب ، سوريا ١٩٩٩م .

وواجب ، قال تعالى : ﴿ . . . وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ . . .﴾(البقرة : ٢٢٨) .

وقامت الشريعة الإسلامية على أساس الاتفاق والوفاء الدائمين ، فهى تفضل الزواج الواحد وتجعل له مكان الصدارة فى الأفضلية ، بل إنها أرشدت الى خطوات إجرائية لإصلاح ذات البين كلما لاحت نذر الخلاف . قال تعالى : ﴿ . . . وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيراً (٣٤) وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيراً﴾ (النساء : ٣٤-٣٥) . وحتى عندما أحل الإسلام تعدد الزوجات جعله مشروطا بتحقيق العدل ، فقال تعالى : ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ . . . ﴾(النساء :٣) ، ثم ألحق القرآن الكريم ذلك بقوله تعالى : ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ (النساء :١٢٩) .

وقد صان الإسلام كرامة الحياة الزوجية عندما جعل الطلاق أبغض الحلال إلى الله ، وذلك عندما تستحيل المعاشرة لسبب أو أكثر ، ويترتب على استمرارها شرور محققة ، ويكون دوامها مدعاة الى ارتكاب ما لابد منه من أخطاء وأوزار ، تهدد سلامة المجتمع وصلاح الذرية .

وامتدت رعاية الإسلام لتشمل ـ كذلك ـ علاقة الأبناء بالأسرة ، فسبقت الهيئات والمؤسسات الاجتماعية إلى تأكيد سمو هذه العلاقة بصورة حاسمة فى قوله تعالى : ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً﴾(الإسراء : ٢٣-٢٤) ، وفى قوله جل شأنه : ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا . . .﴾ (لقمان : ١٥) .

أما سلوك الفرد مع غيره ، وهو أحد المباحث الهامة فى علم الطب الاجتماعى ، فقد عالجه القرآن الكريم بإرشادات محددة فى آيات كثيرة تحث على التعاون والتكافل فى أوجه الخير ، والعمل على إشاعة السلام والوئام والمحبة والود والتسامح ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ . . . وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ . . . ﴾ (المائدة :٢) ،

وقوله سبحانه : ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (١٨١) وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ (١٨٢) وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (الشعراء ١٨١-١٨٣) .

ولعل أحسن ما جمعته مؤلفات الطب الاجتماعي لا يصل الى الآية الكريمة التى جمعت كل ما ينفع الفرد والمجتمع فى قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (النحل :٩٠) .

(ك) علم الأدوية والعلاج قديما وحديثا :

يقتضى تحضير الأدوية وتركيبها التعرف على صفاتها وخصائصها ، وكيفية الحصول عليها ، ومعرفة شوائبها وغشّها ، وطرق الحفاظ عليها دون أن يتطرق إليها الفساد ، وكذلك طرق تعاطيها وتجهيزها فى أشكال وعلى هيئات تسهل تناولها وتؤكد مفعولها والاحتفاظ بخصائصها ، وكذلك ما تصير إليه فى الجسم ، وتأثيرها فيه ، سليمًا كان أو عليلا ، وذلك بالإضافة إلى تحضير الأدوية المركبة ، ودراسة توافقها أو عدم توافقها ، وتقوية بعضها بعضًا . ولكى يتسنى استخدام الأدوية فى أغراض العلاج بحكمة وأمان لابد من تفهم القواعد الأساسية التى تبنى عليها طريقة فعلها .

وقد كانت نظرية الأخلاط الأربعة أحد المبادىء العامة المشتركة فى فلسفة العلاج عند الإغريق ، وأطباء وصيادلة المسلمين . لكن مسلمات هذه النظرية عند الإغريق كانت تستند الى مبدأ طبيعى يحاكى الطبيعة فى المعالجة على أساس ما أسموه «القوة الطبيعية الشافية» Vis Medicatrix Naturae ، ولذا فإنهم حذروا الطبيب من التسرع فى التدخل فى سير المرض ؛ خوفًا من أن يحول دون عمل الطبيعة . وهذه الفلسفة المادية يقابلها عند المسلمين مبدأ عقلانى إيمانى يستمد أصوله من الإسلام ، إسلام القرآن والسنة ، فيعزى القوة الشافية الى الخالق الواحد القائل فى محكم التنزيل ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ (الشعراء :٨٠) . وانطلاقا من هذه المسلمة الإيمانية اتخذ أطباء الحضارة الإسلامية منهجًا علميا واضحا يعتمد فى العلاج - بصفة عامة - على أثر التغذية فى الإسقام والإبراء . فهذا أبو بكر الرازى يقول : «مهما قدرت أن تعالج بالتغذية فلا تعالج بالأدوية ، ومهما قدرت أن تعالج بدواء مفرد فلا تعالج بدواء مركب» . بل إنه كثيرًا ما يفضل أن تكون الأدوية من جنس الأغذية ، اعتقادًا بأن الأمة أو الطائفة التى غالب أغذيتها من الأطعمة البسيطة المفردة تكون أمراضها قليلة ، ويعتمد طبها على المفردات فأهل المدن الذين غلبت عليهم الأغذية المركبة يحتاجون إلى الأدوية المركبة ؛ لأن أمراضهم فى

الغالب مركبة ، بينما تكفى الأدوية المفردة لعلاج أهل الصحارى والبوادى ؛ لأن أمراضهم مفردة . ويضيف داود الأنطاكى إلى طرق العلاج أمرين مهمين ، هما : الزمان الذى يقطع فيه العشب ، والبيئة التى ينمو بها ؛ وذلك استناداً إلى قول أبقراط : «عالجوا كل مريض بعقاقير أرضه ؛ فإنه أجلب لصحته» .

والباحث فى كتب التراث الإسلامى المعنية بالطب والصيدلة يجد هذه المنهجية الإيمانية التجريبية واضحة فى فكر أطباء وصيادلة الحضارة الإسلامية الذين حرصوا على تدوين ما يصفون للمرض من أدوية ، وكتبوا عن «الأقربازين» الذى كان يعنى فى بادىء الأمر تركيب الأدوية المفردة وقوانينها ، وأصبح يعنى فى العصر الحديث علم طبائع الأدوية وخواصها ، واحترفوا جمع الأدوية على أفضل صورها ، واختيار الأجود من أنواعها ، مفردة أو مركبة ، وأجروا الدراسات على تأثيرها الطبى ، وحدود جرعتها ، وفترة صلاحيتها ، وطريقة استعمالها وحفظها ، وجمعوا ذلك فى «دستور الأدوية» الذى يمثل خلاصة ما يصل إليه البحث فى العلوم الصيدلية والطبية بصورة عامة ، وفى علمى العقاقير والأقربازين بصورة خاصة .

وقد انعكست هذه المنهجية الإسلامية فى كل ما كتب عن علم العقاقير والعلاج بالأدوية ، الأمر الذى جعل هذه المؤلفات تحظى باهتمام علماء الشرق والغرب وتؤثر فيهم تأثيرا عظيما[1] . ويكفى أن نذكر من مآثر علماء الحضارة الإسلامية أنهم اكتشفوا العديد من العقاقير التى لاتزال تحتفظ بأسمائها العربية فى اللغات الأجنبية ، مثل : الحناء ، والحنظل ، والكافور ، والكركم ، والكمون . . وغيرها .

وفى العصر الحاضر شهدت العلوم الطبية قفزة هائلة ؛ نتيجة للتطور السريع فى التقنيات المستخدمة وأساليب علاج الأمراض ، خاصة بعد أن دخلت البشرية عصر التقنية الحيوية والهندسة الوراثية لعلاج الأمراض ، وقد أدى هذا إلى رصد العديد من السلبيات على الطب الحديث ، أهمها ما يحدث من أضرار جانبية للأدوية ، بالإضافة إلى ارتفاع تكاليف العلاج بالنسبة للأغلبية العظمى من البشر . وأصبحت الحاجة ملحة إلى البحث عن الفنون القديمة للتداوى ، وإعادة صقلها باستخدام المعارف والتقنيات الحديثة ؛ بهدف الوصول الى علاج المريض بأعلى درجة من الكفاءة وأقل قدر من الأضرار والتكاليف . ويعرف هذا الاتجاه الجديد باسم «الطب البديل» ، وهو لا يعنى استبدال الطب الحديث بفنون العلاج

(١) د . أحمد فؤاد باشا : تراثنا العلمى ورحلته الى الغرب ، مجلة تراثيات ، ع١٤ ، دار الكتب والوثائق القومية ، القاهرة٢٠٠٣م .

التقليدية ، ولكنه يدعو إلى إعادة الاختيار لما هو أنسب لكل مريض حسب حالته ، ومن ثم أصبح مصطلح «الطب التكميلى» : Complementary / Alternative Medicine أكثر توفيقا .

ومن مظاهر الاهتمام بهذا الاتجاه الجديد العودة إلى قراءة مخطوطات الطب الإسلامى ، بعد أن اختفت لفترة أمام التطور العلمى والتقنى ، فقد شرع علماء أوروبا وأمريكا فى إعادة فحص هذه المؤلفات ، وإجراء التجارب على الوصفات الشعبية التى وردت فيها ؛ فى محاولة للكشف عن أدوية جديدة للأمراض . وفى السنوات الأخيرة زاد اهتمام شركات الأدوية فى ألمانيا والدانمارك وهولندا وإيطاليا وأمريكا بهذا الموضوع ، وطلبوا من بعض دول المشرق شراء بعض النباتات الطبية .

ومن ناحية أخرى قامت بعض كليات الطب ومراكز البحوث فى بعض الدول النامية بتقييم ودراسة فروع الطب التكميلى ، وإتاحة العديد من المواد الطبيعية التى تتوافر فيها الكفاءة وقلة الكلفة والأضرار الجانبية ، ووفرت بعض الأعشاب التى تزيد من مناعة الجسم . واهتمت بعض شركات الدواء بتقديم العديد من الأعشاب المدروسة كبدائل لتجنب الآثار الجانبية للدواء .

لكن الحاجة أصبحت ماسة لترشيد البحث فى مجال الطب التكميلى ، ووضع ضوابط صارمة لممارسته وتطبيقه ، بحيث يحقق الفوائد المرجوة منه فى المداواة والعلاج والحفاظ على صحة الإنسان أينما كان[١] .

---

(١) أعمال الندوة العالمية حول «دمج الطب البديل بالطب الحديث» . المنظمة الإسلامية للعلوم الطبية بالتعاون مع منظمة الصحة العالمية ومنظمة الأيسسكو . القاهرة ، أكتوبر٢٠٠٢م .